

الأرواح في سيرة أعمروس :

ملتن

[القبتارة الخالدة التي غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والجمال ...]

للاستاذ محمود الخفيف

- ١٦ -

—>>><<<—

بعد أوبريه من إيطاليا :

أب ملتن إلى وطنه بعد أن غاب عنه سنة وثلاثة أشهر !
وكانت الحرب بين إنجلترا واسكتلندة في أولى مراحلها ؛ وكانت
السياسة الداخلية دائبة في عصفها لا تكاد تجنح إلى السكون حتى
تهب ريحها عاتية من كل جانب .

وكان يتوقع منه بادي الرأي وقد آثر العودة إلى بلاده على
الضيق في رحلته حياء منه ، كما ذكر ، أن يستمتع بالرحيل والأحرار
في وطنه يمانون ضروب البلاء ، أن يلقى بنفسه في غمار السياسة
أففة منه وحفاظا ودفاعا عن الحرية التي يمشقها والتي ركب في
فطرتة الليل إلى نصرتها ؛ ولكنه ركن إلى الدرس ولاذ بالمرزلة
كما كان يفعل قبل رحيله .

وقدملاً الحزن جوانب نفسه على صديقه ديوداتي ، وآله
ألا يجد مكانه من يستطيع أن يفضي إليه بأبناء رحلته ، ويظهره
على ما لاقى أثناءها من حفاوة وما اكتسب من حسن السمعة
وذهاب الصيت .

والتمس الجزاء لنفسه في مرثية كتبها فأدى بها حق الوفاء
لصديقه . وقد اختار لها اللغة اللاتينية كما اختار لها الجوز القروي
وصور الرعاة وحياتهم ، والذين يعرفون اللاتينية ممن كتبوا حياة
ملتن على اتفاق أنها من حيث الفن في ذاته لا تنزل عن مستوى
مرثيته ليسيداس ؛ وأنها من حيث العاطفة أعمق وأصدق من
أختها لأن صلة ديوداتي بملتن كانت أوثق من صلة كينج به ،
فقد كان ديوداتي قرينه منذ سفره وأقرب خلانه إلى قلبه وأشد هم
محبة له ؛ وأخذ ملتن يذكر له في مرثيته ما كان يجب لولا أن

طواه الموت أن يلقيه على سمه ؛ وجعل ملتن من نفسه ومن
صاحبه راعين كما فعل في ليسيداس ، وأثنى على خلال صاحبه
ولا سيما وفاءه وذكاءه ومرحه وتألم أن كان بعيداً عن وطنه في
غير ضرورة ملجئة فلم ير نهاية صديقه . وأشار ملتن في هذه
المدينة إلى أنه سوف يجد الجزاء في الشمر فيكتب إلياذة عن
تاريخ قومه وأساطيرهم جاعلا الملك آرثر وفرسانه أبطال ملحمة
متخذاً اللغة الإنجليزية أداته ؛ ولكن هذه الملحمة التي وعد بها
ظلت مجرد وعد فقد صرفته عنها شواغل السياسة والدين كما
صرفته عن الشمر جيماً اللهم إلا بضع مقطوعات قصيرة زهاء
عشرين عاماً ...

وكما أطلق ملتن على ادوارد كنج اتهم ليسيداس أطلق هنا
على ديوداتي اسم دامون ؛ وكان دامون من مشاهير الفلاسفة
ورجال الموسيقى بأثينا ، وكان صديقاً وأستاذاً لبركليس ؛ وقيل إنه
كان كذلك أستاذاً لسقراط ، وكان مضرب المثل في الوفاء ، فقد
اقترب أحد أصحابه بجريمة كان قصاصها القتل ، وعول ملك
سيرا كوز على قتله فاستأذنه أن ينصرف ليقوم على بعض شؤون
أسرته ثم يعود لينفذ فيه القصاص . وتقدم دامون فرفض أن
يكون رهينة عند الملك ليقبله بدل صاحبه إن لم يعد في مواعده ؛
وحل الموعد وهم الملك يقتل دامون فجاء صاحبه معجلاً فأنقذه ؛
وآثر وفاء الرجلين في نفس الملك فعدل عن قصاصه وطلب إليهما
أن يكونا نالهما في هذه الصحبة الوثيقة (١) .

ويجد في اختيار ملتن هذا الإيم لصاحبه شاهداً من شواهد
فنه ، فهو يلحج كما ذكرنا من قبل إلى المعنى الواسع بالكلمة
الواحدة ...

واختتم ملتن مرثيته بإشارته إلى موت صاحبه ولم يتزوج ،
فذكر الحب وقال إن من حق الشباب أن يحب ، وأن الذي يذوق
طعم الحب وقد تقدمت به السن يذوق طعم الحسرة مضاعفا ؛ ثم
يبشر صاحبه بأنه سيأتي في الجنة خير العوض عما فاته في الدنيا
فسيستمتع بزواج خالد في عرس بهيج من أعراس الفردوس .
ويجد بعض الكتاب في ذكره الحب وأنه من حق الشباب
وفي نأله على موت صاحبه ولم يتزوج نليحا منه إلى حالته هو ،

(١) (الرسالة) : هذه القصة من بينها قصة حنظلة وشريك بن عمرو
والتمان ا راجع (البدائي) فشرح المثل : إن غداً لناظره قريب ..

ما ذكره ابن أخته لم يعد السقم ؛ فهو يباهى بأنهم قرأوا كثيرا وتعلموا كثيرا ...

بهذا الدأب وهذه المزجة أقبل ملتن على العمل بعد عودته من إيطاليا . على أن ابن أخته يذكر من أبناء تلك الأيام أن خاله كان يتصرف عن العمل كل ثلاثة أسابيع أو كل شهر مرة فيمضي يوما بين نفر من صحابته يستمتعون بالمرح واللهو البرى . وماذا كان يقرأ ملتن بعد أوبته من إيطاليا ؟ إنه اليوم شديد الولوج بالتاريخ وعلى الأخص تاريخ قومه ، وإن الملحمة التي داعبت خياله في إيطاليا عن تاريخ قومه أو الآرتريادة ليمارود حلمها اليوم ويأج عليه . ولقد أشار إليها كما ذكرنا في مرثيته عن صديقه ديوداتي ؛ كما أنه أثبت كثيرا مما يتصل بها في كشكوله الذي أخذ منذ إقامته في هورتون ليكتب فيه كل ما يمن له من الآراء والملاحظات ...

وأثبت ملتن في تلك الكراسة من الإشارات ما يدل على دراسة شؤون السياسة ، كالمضلة المالية والضرائب والملكية والجمهورية وحرية الرأى وحرية النشر والقوانين والاستبداد ، وغيرهما مما يتصل بأحوال عصره .

ولن يزال يقرأ ويتدبر ، ولن يزال يعتقد أنه لم يفرغ بعد من أهيبته لما يجب أن ينهض له من عمل في دنيا الشعر ، نجد دليلا على ذلك في قوله إنه يسار « ذلك التلقين الباطني الذي يزداد يوما بعد يوم فيوحى إلى أنه بالجد والدراسة المقصودة وهو ما أعده حظي في هذه الحياة مضافا إلى ذلك ميل نظري قوى ، قد يتأق لي أن أترك آرا كتبتة لمن يأتي بمدى من الأجيال فلا يدعونه إلى النسيان » .

وما عسى أن يكون ذلك الأثر ومتى ينهض له ؟ لعل الشاعر لم يكن أكثر بينة من أمره فيما يتصل بموضوع ذلك الأثر الخالد منه فيما يتصل بتاريخ البدء فيه ، فإن كراسته تنطوى على نحو مائة موضوع غير الآرتريادة وكثيرتها تتصل بالدين ومسائله من عهد آدم وحواء والخروج من الجنة وما إلى ذلك مما يدل بكثرة وتنوعه على حيرة الشاعر بين ما يأخذ وما يدع ... كذلك حار ملتن بين الصور التي يختار واحدة منها لموضوعه ، أيتخذ له الملحمة على نحو ما فعل هوميروس ودانتي ، أم يتخذ له الدراما ؛ أم يترك هذه وتلك إلى سلسلة من الأناشيد مثل أناشيد بندار ،

وإن خفي هذا التلميح ، ويقولون إن ملتن كان يفكر يومئذ في الزواج وأنه قد مل أن يعيش أعزب .

على أنه يعود إلى القراءة في إقبال لا يقل عن سالف إقباله عليها أثناء مقامه في هورتون ؛ وقد أخذ له بعد أوبته من إيطاليا مسكنا في لندن فلم يعد إلى القرية . ورضى أبوه الشيخ أن يمدد بما يطلب من المال وإن كان لا يزال يجب ويتألم إلا يتخذ ابنه عملا إلا مالا يريح برده من تثقيف نفسه ليكون أهلا لما يستشرف له في دنيا الأدب ؛ وراض الرجل نفسه على سماع هذا وعلى الجود بما يطلب ابنه من المال . والحق أن ابنه لم يطلب منه كثيراً فما كانت به حاجة إلى متع الحياة ولذا ذاتها مما يتطلب مالا كثيراً وحسبه من المال ما يشتري به قوته وما يلزم له من الكتب وما يدفع منه أحر مسكنه ...

وضاق المسكن الجديد بكتبه ما اقتناه منها في هورتون وما اشتراه من إيطاليا ، فأنخذ له مسكنا أوسع منه في أطراف المدينة . وهناك عكف على القراءة والدرس تاركا الشؤون العامة إلى « عناية الله أولا ثم إلى من وكل إليهم الناس القيام على هذه الشؤون » . وأشرف ملتن في مسكنه الجديد على تعليم ابني أخته وقد قبلها ليقيا عنده بعد موت أبيهما وزواج أمهما من غيره ، وما لبث أن ضم إليهما عددا من أبناء أصحابه الأقربين ، وأقبل على تعليمهم جميعا في حماسة ولذة لا تقل عن شغفه بالقراءة والدرس . ولقد عجب دكتور جونسون من عمله هذا وسخر منه فأشار إليه بقوله : « إنه ينظر بشئ من الفكاهة إلى ذلك الرجل الذي يبادر بالعودة إلى وطنه لأن قومه يكافحون في سبيل الحرية ، ولكنه لا يلبث وقد بلغ ميدان العمل أن يدع وطنيته تتبخر في مدرسة يفتحها في بيته » .

وأقبل ملتن على تعليم هؤلاء الصبية وعلى القراءة فلا يدع ساعة من نهاره إلا ملأها بعمل حتى أيام الآحاد لم يدع فيها كتبه وأوراقه إلا ريثما يؤدي واجب الدين . وتبين مما كتبه أحد ابني أخته فيما بعد عن حياته وأخيه في بيت خالهما أنه كان يأخذهما بالجد في غير هواة ومن كان متهما من أبناء أصحابه ، ولكننا لا نتبين فيما كتب أن ملتن قد اهتدى إلى طريقة خاصة في التعليم أو بأنه جرى على أسلوب اقتنع بسلامته وفائدته ، فكل

ونظامها ومظهرها ، وكان يحارب مبدأ كلفن في القدر المحتوم ، ويمضد المبدأ القائل بالاختيار ، ويضطهد من يدعو إلى الاعتماد على الأحميل وحده بغير رجوع إلى القس ، وأمن لود في الكيد للبيوريتانز ، واستمان بسلطة الدولة فأداهم سوء العذاب !

على أن فريقاً من المتدلين وقفوا بين هؤلاء وهؤلاء وإن كانوا قلة . ويرى هؤلاء المتدلون أن المرء حر فيما يفكر فيه ، أو فيما يأتي من عمل ما دام يطيع الملك والقس . وكان ملتن أقرب إلى هؤلاء المتدلين منه إلى متطرفي البيوريتانز ؛ فقد كان يرفض عقيدة القدر المحتوم ويؤمن بحرية الاختيار ، كما كان يحب التسامح ويدعو إليه . وخالف البيوريتانز في تزمهم ومبالغتهم في الزهد والتقص . وعنده أن المرء إذا وفى واجب الدين حقه ، واستمسك بالفضيلة فلا تحرم عليه زينة الله التي أخرج لعباده . وللناس أن يستمتعوا أيام الآحاد بما يشيع البهجة والمرح في نفوسهم بدل أن يحشروا حشراً إلى الكنائس ويحملوا على البقاء فيها طويلاً ...

ولكن ملتن أنكر بكل ما في نفسه من حب للحرية على القساوسة تمصهم واستبدادهم ، وألقى بقيثارته من يده على رنمه وخرج من عزلته ليبدأ ضد القساوسة كفاحاً ثائراً عنيفاً تجل فيه كل ما في طبعه من إنكار ومقت للتعصب ، وكل ما في روحه من تمرد على الاستبداد وميل إلى نصرة الحرية .

الحقبة

(يتبع)

اطلبوا المطبوعات اللبنانية والسورية :

من جميع المكتبات المصرية ومن وكيل التوزيع -
 ن ٢٧ شارع الملكة فريدة - في مكتب توفيق شلخت
 فلسفة التشريع في الإسلام : للدكتور صبحي عمصاني
 تاريخنا : لأكرم زعيتر .
 العرب : للدكتور قيايب حتى .
 التعاون الثقافي بين الأقطار العربية : لعبد الله مشنوق
 أبو نعام : للدكتور عمر فروخ .
 ابن طفيل : للدكتور عمر فروخ
 منهج البحث في الأدب واللغة : للدكتور محمد مندور

فلكل من هذه الصور مميزاته ومحاسنه ، ولعل مرد حيرته في اختيار الصورة إلى أنه لم يحدد الموضوع ، إذ أن الموضوع في الواقع هو الذي يبين الصورة التي يؤدي فيها .

ومهما يكن من أمر هذه الحيرة فقد قدر على الشاعر أن يدع قيثارته جانباً نحو عشرين سنة لم يكن له فيها أداة إلا الذثر اللهم إلا مقطوعات قليلة نفس بها عن صدره في بعض المناسبات .

اجتمع البرلمان الطويل في نوفمبر سنة ١٦٤٠ ، وقدم إليه مقترح الأصل والفرع ، ذلك المقترح الذي سمر له البيوريتانز ، وأرادوا به القضاء على النظام الأسقني ، وتصدى لأصحاب هذا المقترح فريق من المؤيدين للنظام الأسقني ومن الشفقيين من التطرف في الدين والسياسة الذين آثروا الوقوف إلى جانب الملك ودب الخلاف على هذا النحو بين أعضاء البرلمان .

وانتقل الخلاف إلى خارج البرلمان فانقسم الناس فريقين :
 أنصار البيوريتانز ، وأشياح الملك وكبير الأساقفة
 وظهر الجانب السياسي من تفكير البيوريتانز يومئذ في وضوح ، وأخذوا يشيرون آراءهم في الناس ؛ فالناس جميعاً أمام الله سواء ، ولا يكون الخوف إلا من الله وحده ، والعدالة الاجتماعية وإقرار الحق في كل أمرهما دعامة المجتمع الأساسيتان إلى غير ذلك من الآراء الحرة التي تنهض الاستبداد والظلم .

أما في الدين ، فلم يبرح البيوريتانز يملنون مقتهم لكنيسة روما وللنظام الأسقني وازدراءهم لها ، وما برحوا كذلك ينسبون إلى القساوسة أنهم هم الذين يوحون إلى الملك طفنيانه وعلى الأخص كبيرهم وإيم لود ، وراحوا يذبحون أن لا حاجة بالناس إلى أخذ الدين عن القساوسة ، فلكل امرئ الحرية أن يتفقه في دينه مستميتاً بكلام الله ، وإذا فلم لا يستغنى الناس عن الأساقفة ولم يمد لهم ما سلف من خطر ؟

وتمسك لود وحزبه بوجوب طاعة الملك ، وأعلنوا أن لا غنى للدولة عن النظام الأسقني ، وأن الكنيسة هي دعامة الملك والمجتمع . فإذا قضى عليها شاعت الفوضى في كل شيء . وكان يعمل لود على العودة شيئاً فشيئاً إلى كنيسة روما في روحها